

المجلد: 08 / العدد 02 ديسمبر (2024)، ص.ص 29-37
إشكالية الهوية ورهان الانتماء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية
قراءة في نماذج لمحمد ديب ومولود فرعون.

The Problem of Identity and the challenge of Belonging in the Algerian Novel Written in French a Reading in samples from Muhammad Dib and Mouloud faroun's works

د. نبيلة فراحتية
en.ferahtia@univ-blid2.dz
جامعة البليدة 2
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/ 09/24

تاريخ الاستلام: 2024/07/03

ملخص:

تساهم الثقافة عبر مجموع من السمات في تحديد هوية الذات وانتمائها، غير أن هناك عوامل خارجية تؤثر في تشكيل الهوية من خلال الاحتكاك بالآخر والانفتاح على ثقافته ما خلق نوعا من التقبل والتعايش مع الآخر أو الصراع والاختلاف معه. وبعد أن سعى المستعمر الفرنسي إلى فرض مركزيته وبلورة مشروع يمجّد قيم الإنسان الأبيض ويقضي الآخر الملون عمل الكتاب الجزائريون عبر نصوصهم السردية إلى نقض مقولة الآخر وإعادة الاعتبار للذات المهمشة.

نسعى من خلال هذه الأوراق البحثية إلى رصد أثر ثقافة الآخر في هوية الذات وإحساسها بالاغتراب وما سببه لها من أزمة أنطولوجية، وذلك من خلال اختيار بعض المدونات لمحمد ديب ومولود فرعون مركّزين على قضية الهوية المستتبّة واللغة المفروضة على الذات، والبحث عن الخلفيات التي تؤسس إلى مبدأ الاختلاف لا الانفتاح بين الذات والآخر

كلمات مفتاحية: الهوية، المستعمر، المدرسة، محمد ديب، مولود فرعون.

Abstract:

Culture contributes through a set of characteristics to self-identification and belonging, but there are external factors that affect the formation of identity through contact with the other and openness to his culture, which creates a kind of acceptance and coexistence with the other or conflict and disagreement with him.

The French colonialists sought to impose their centrality and formulate a project that glorified the values of the white person and excluded the colored other, therefor, Algerian writers worked, through their narrative texts, to refute the notion of the other and restore respect to the marginalized self.

Thus, we seek, through these research papers, to monitor the impact of the other's culture on the self's identity, its sense of alienation, and the ontological crisis it causes. This is done by selecting some writing samples by Muhammad Deeb and Mouloud faraoun, focusing on the issue of alienated identity and the language imposed on the self, and searching for the backgrounds that establish the principle. Difference, not openness, between self and other

Keywords: identity, colonizer, school, Muhammad Deeb, mouloud faroun

مقدمة:

تترجع الرواية على عرش الأجناس الأدبية الأخرى كونها تمثل شكلا من أشكال التعبير، وشحنة من الإيديولوجيات والأفكار والفلسفات التي تعكس واقع المجتمع وهموم الفرد وتسهم في صناعة الوعي، وإن كانت ذا طبيعة تخيلية فهي آلية من آليات التمثيل الثقافي، وقد استند إليها الكاتب الجزائري الذي حال الأمر دون اعتياده اللغة العربية ليستعير من المستعمر لغته معلنا عن خطاب وطني يترجم مرجعيته الثقافية، يسائل الواقع بكل تفاصيله، حمل معه قلق الوجود الاستعماري مقاربا للحقائق، مقوضا للخطاب الاستعماري والاندماجي، وتأسيسا لقيم جالية كفيلة بأن تعيد للذات صورتها التي طمسها وشوهها الآخر في روايته الكولونيالية.

بات لقاء الأنا الجزائري بالآخر المستعمر يشكل قضية أدبية ومجالا خصبا في الخطاب الروائي رصد خلاله الكاتب الأثر العميق الذي أحدثه التأثير الناتج عن هذه العلاقة، والتي استغلها المستعمر لصالحه، إذ جعل الذات الجزائرية المختلف الذي يرى خلاله تميزه وتفوقه، وإن تعددت مواقف الكتاب وتباينت آراؤهم في رصد صورة الآخر المستعمر من انبهار أو استنكار لتعكس صيغة التعايش والانفتاح الثقافي على الآخر من عدمه. ليتحول الخطاب الروائي الجزائري إلى خطاب إيديولوجي يحاكي الواقع ويقوض كل المقولات التي تهمشه.

وقد انبثق عن علاقة الأنا بالآخر عدة أسئلة تتعلق بالهوية وإشكالية الانتماء طرحها الروائي في قالب سردي اهتم فيه بأبعاد الهوية الوطنية والقومية والدينية، فالهوية قضية وجودية تخص مستقبل الذات، غير أن ما يهينا نظرة الكتاب الفرانكفونيين في رصد تأثير الآخر في محاولة تذويب الذات في الآخر، وكشكل من أشكال المقاومة التي تغذيها أبعاد ثقافية وسياسية وأيديولوجية عبر الكاتب الجزائري عن التمزق والتصدع والضياع الذي لحق الأنا الجزائرية في بعدها الديني والثقافي، ولعل أبرز الروايات التي رصدت الأثر الذي أحدثه الآخر في محيط الذات هي الروايات التي كتبت باللسان الفرنسي أبرز روادها (محمد ديب، ومولود معمري، ومولود فرعون، وكتاب ياسين...)، غير أننا سنختار بعض النماذج الروائية لنقف عند سؤال الهوية والانتماء الذي بات يؤرق الذات ويهدد مستقبلها، وكإشكالية عميقة لا ينحصر أثرها في وجود المستعمر الفرنسي في محيط الذات الجغرافي، بل تعدته إلى مرحلة ما بعد الاستقلال.

نسعى من خلال هذه الأوراق البحثية إلى البحث عن الأنساق المضمرة والأيدولوجيات المختلفة التي تكون مضمرة داخل العمل الإبداعي من خلال مجموعة من المفاهيم الأساسية: الهوية، الانتماء، الأنا، الآخر، الاغتراب، المركز، التابع، الهامش، التقاليد، المركز، الشرق، الغرب التبعين...، كما تناولها الكاتب الجزائري من خلال تمثيله علاقة الذات بالآخر وذلك من خلال الإجابة على الإشكالية التالية وما ينبثق عنها من تساؤلات :

- كيف عاج الكاتب إشكالية الهوية في خطابه الروائي؟
- هل استطاعت الشخصيات الروائية كسب الرهان في تمسكها بذاتها وتأكيد انتمائها؟
- إلى أي مدى يعمل المستعمر على تفكيك مقومات الذات الوطنية؟

وقد تم اختيار ثلاثية محمد ديب ورواية الدروب الوعة وابن الفقير كنماذج للدراسة والتركيز على المدرسة كفضاء يحاول مسخ الذات وسلخها عن هويتها، وكذا التطرق إلى قضية التنصير التي دأب المستعمر عليها بنشر الديانة المسيحية. وقد اعتمدت المنهج الوصفي للدراسة في الجانب النظري في حين كان اعتماد التحليل الثقافي الأنسب للدراسة في شقها التطبيقي.

1- مفهوم الهوية :

يعتبر مفهوم الهوية من بين أحد أبرز المفاهيم المطروحة للنقاش في حقول معرفية مختلفة، لها أبعاد فلسفية وسيكولوجية وأثنولوجية وثقافية، فقد عرفت إشكالية الهوية ومسار تحديد المصطلح تطورا ملحوظا مع كل مرحلة تاريخية تزامت فيها الدراسات بمجالات العلوم الإنسانية المختلفة وأثارت قلقا حولها، إلا أنها ظلت مصطلحا مسائرا للتجديد والتنوع، والهوية في معناها اللغوي ترتبط بمجموع من المكونات الثقافية والبيولوجية، واللغة والدين والعادات والتراث والقومية الواحدة، لذا يأتي تعريفها في المعجم العربي بأنها مشتقة من "الهؤ" وهو ضمير منفصل يدل على الشخص المفرد، حيث تحمل الهوية مدلولات لغوية متعددة، ففي قاموس لاروس (Larousse) تعني "مجموع الظروف

أو الحثيات التي تجعل من الشخص شخصا مميزا أو محدودا¹، وهنا اقتصر التعريف على الجانب الخارجي المجرد وإهمال الجانب الحسي، وتظهر الهوية كمصطلح إجرائي عند أليكس ميكشلي (Alex Mucchielli) حيث "يطلق لفظ الهوية على نسق لمعايير التي يعرف بها الفرد ويعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة"²، فيتجاوز الجانب الخارجي إلى تحديد شامل للفرد عبر مجموع الصفات التي يميز بها عن الجماعة أو المجتمع. وعليه فإن الفرد ينتمي إلى جماعة ويتميز عنها في صفات محددة، وهي الخصائص الشخصية لذلك الفرد، وتتغير الهوية بتغير المكان والزمان، فهي أساس الذات في كونها "ما يصمد من الإنسان عبر الزمن، إذ تلازمه مكونة شخصيته ومحددة معالمة بشكل ثابت؛ أي ما يمنح إبداعه طابعاً خاصاً، فلا يكون مسخاً للآخرين"³؛ لتكون دلالتها متعلقة بما يضمن تفرد الذات عن الجماعة وما يميزها من خصائص تضمن تفرده.

إن مفهوم الهوية من المفاهيم الشائكة في الساحة الثقافية، والتي لعبت دوراً هاماً في الدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية والنظرية النسوية والدراسات ما بعد الحديثة. يستخدم المصطلح على نطاق واسع في عدة حقول معرفية ليكون مرتبطاً في الدراسات الثقافية بثنائية الأنا والآخر؛ هذه الثنائية التي تتجلى عبر تشكلات يفرضها سياق الدراسة أو النقد وفق أطر مختلفة (مركز/هامش، ذكر/أنثى، شرق/غرب)، فقد تبدو الذات في حاجة إلى تحديد تفردا وخصوصيتها بوجود آخر -مختلف- وهذا النمط من التصور أدرجه إدوارد سعيد في دراسته حيث يبين أن "أزمة الهوية لا تظهر إلا في المجتمعات التي تدخل في ديناميكية الحديثة، الأزمة هنا مفهومة على أنها مجرد بدء الجهد المؤلم أو المفرح في تحديد الذات"⁴، فأزمة الأنا تبدأ باكتشاف الآخر.

2. المدرسة الفرنسية وسياسة الإدماج:

سعت فرنسا لتكريس فكرة الاستعمار فاعتصبت الأراضي وعملت على سياسة التهجير، وهكذا سعت فرنسا لإثبات جذورها في الجزائر وإقصاء الأهالي إلى مرتبة هامشية، في محاولة فرض سيطرة سياسية وعسكرية وثقافية وتوسيع إمبراطوريتها على حساب الأصلايين، فاستهدفت الهوية في عقراها من خلال تعويض المدرسة الجزائرية بأخرى فرنسية، فلما كانت المدرسة المكان الذي تتم فيه عملية تنشئة وتهذيب الأجيال وتعليمهم وتعزيز شعور الانتماء والمواطنة لديهم والتعرف على تاريخهم وثقافتهم وترسيخ القيم والأخلاق السامية، فإن دلالته المكان تتعد عن مدلوله إذا ما اقترن بعنصر دخيل، وهنا نتحدث عن مدرسة فرنسية في الجزائر كمؤسسة أيديولوجية استعمارية، وهماز إدماجي وُجد ليكون له أبعاد سياسية وثقافية تم طرحها من قبل الكاتب الجزائري، وهو ما رصدناه عند كل من محمد ديب ومولود فرعون في رواياتهم، وتركيزهما على المرحلة الاستعمارية التي تم فيها تسخير المدرسة لخدمة غايات إمبريالية قائمة على تذويب الخصوصية الثقافية للفرد الجزائري.

أدرك المستعمر صعوبة الوظيفة الإيديولوجية أمام فئة الأهالي التي في غالبيتها من وسط ريفي لها موقف معادي تجاه الآخر المستعمر، فكان لا بد من إيجاد بديل يسهل له الأمر بأن يستغل الفئة الجزائرية المثقفة وشحنها بأفكار وإيديولوجية استعمارية معادية للوطن، لذا قام بالقضاء على الزوايا والمساجد التي ترسخ قيم وعقائد ومبادئ عليا وتعويضها بأن أنشأ -الفرنسي- مدارس فرنسية في الأراضي الجزائرية فتحت أبوابها لأبناء الأهالي مع تقديم ضمانات وامتنيازات لهم، والانتكاء عليها كبررات لتحضير الأجيال، ونقلها إلى الرقي والتقدم الغربي القائم على سياسة التمدن، الأكذوبة التي حملها الغرب لبلدان المشرق العربي وصدقتها- وهو ما يؤكد مشروعيتها- وإن كان هذا التعليم في ظاهره يعمل على تثقيف وتعليم الفئة الأمية من أبناء الأهالي والطبقات الكادحة إلا أنه في حقيقته قائم وفق منطق مانوي مبني على التناقضات والفوارق بين الأنا الجزائري والآخر المستعمر، وطريق إلى تحقيق أهداف استعمارية، وهو ما عبر عنه أحد النقاد الفرنسيين في قوله: "إن هؤلاء المسلمين الذين تكونوا في مدارسنا، يستطيعون ليس فقط التأقلم مع لغتنا، لكنهم يدركون جيدا أهداف التقدم الذي خلقته منجزاتنا وأعمالنا العسكرية وهم يساعدوننا على تحقيقها"⁵، فهو لا يلقن الأطفال إلا المعرفة التي تخدم الآخر بامتدادهم سياسة الاستلاب والتهجين، وهو ما تجسد من خلال شخصيات رواية (ابن الفقير) حيث كان المعلم الذي يدرس في المدرسة الفرنسية من أصل جزائري وهو ما ورد في قول فورلو: "كان لنا معلمين كلاهما قبائلي"⁶، والأمر نفسه بالنسبة لشخصية المعلم حسن في (ثلاثية محمد ديب) حتى أن عمر بدأ يتساءل عن الهوية الوطنية لمعلمه في قوله: "هل الأستاذ حسن وطني؟"⁷، وإذا كان كذلك لماذا يقوم بتدريس لغة غير

لغته وتاريخ ليس بتاريخ أجداده، إنما هو شخصية مثقفة استغلها المستعمر لغايات أمبريالية باستبدال تاريخه ولغته وثقافته ومسح هويته.

2-1- تشظي الهوية والتأهي مع الآخر :

يعمل الأديب على تحميل نصه بمجموع الأفكار بقصد أو عن غير قصد تتجلى عبر مجموعة من الأنساق الثقافية والاجتماعية والفكرية، فالرواية مخزون من التراث والعادات والتقاليد والقيم والأفكار، ولأن منظومة الأنساق عاكسة لأمة من الأمم، والجزائر عانت من انتهاكات المستعمر الفرنسي الذي أتاح لنفسه كل السبل للسيطرة وتحقيق الاستيطان وسلخ الذات عن هويتها وقطع جذورها فاستهدفها في لغتها من خلال تعليم اللغة الفرنسية "فرغم رفض الآباء إرسال أبنائهم لتعلم اللغة الفرنسية وقلقهم من أثر ثقافة الآخر لما لها من انعكاسات سلبية تمس قيمهم ومبادئهم وحتى دينهم، واعتبروا الثقافة الفرنسية وسيلة أخرى لاستعمارهم"⁸ إلا أن الظروف المعيشية والاجتماعية القاهرة فرضت عليهم البحث عن حل يخرجهم من واقع محمشم للذات يقبض على خناقها، ما جعل العائلة الجزائرية ترى أن المستقبل يقضي بهم إلى دخول المدرسة الفرنسية في سبيل التحصيل العلمي الذي يمكنه من الظفر بمنصب محترم يضمن له العيش ويخلصه من فقره وبؤسه، (فولود فرعون) بدوره نقل حاجة الشخصية للوظيفة في أعماله الروائية، وهو ما نلاحظه في رواية (ابن الفقير) (Le fils du Pauvre) فقد كان والد فورلوا يسعى إلى أن يكون ابنه متعلما لما قام بتسجيله في إحدى المدارس الفرنسية في الجزائر رغم حالة الفقر التي يعانيها، قرر إرسال ابنه ليتعلم ويرفع عنهم حالة الغبن والفقر، لذا كان مستعجلا في التحاقه بمقاعد الدراسة في المدرسة الفرنسية، كونها في نظره ستغير حالهم وتضمن لهم مستقبلا أفضل، وإذا ما لم يتمكن من النجاح فإن مصيره الهجرة أو العمل في الفلاحة عند المستوطن الفرنسي أو العمل في أحد المصانع بضغ قطع نقدية.

يتحدث السارد في رواية (ابن الفقير) في أحد المقاطع على لسان الطفل فولرو وينقل خلالها حديث والديه فيقول "يقول أبي لأبي: "أسرعي، أسرعي، اغسله، نظفي يديه ووجهه، والرقبة، والرجلين، أعتقد أن الشيخ سيقبل مثل هذا الفرد؟

قالت أمي: إن قندورته أيضا متسخة، ربما ينبغي أن ينتظر إلى الغد لأغسلها هي وبرنوسه"⁹. قال أبي: "عذا تؤخذ جميع الأماكن، كما ينبغي عليه أن لا يبدأ الدراسة بالغياب، يقال أن الرومي (الفرنسي) شديد... لنسرع!"

تم تنظيفي على عجل، وبعد خمس دقائق، وأنا مذهول، كنت في ساحة المدرسة الكبيرة وهي مكتظة بالتلاميذ¹⁰ كان اللقاء مع الآخر لحظة انبهار تجلت خلالها بوادر الانفتاح على العالم وإدراك الفارق بين محيطه الذي يعيش فيه وإعجابه بفضاء الآخر ولباس الفرنسيين وأناقتهم لذا يقول الطفل فورلوا أثناء وجوده في فناء المدرسة: "بدا لي ذلك الملبس ولمدة قريبة من الزمن أقصى حدود الأناقة واللباقة"¹¹. على خلاف ما انعكس في المقطع السردى الذي تبين فيه أن فورلوا سيتمدرس بالقندورة التي لا يملك غيرها، فتجلي انبهار الأنا بالآخر هو انسجام مع ما تقرره المركزية الغربية التي تقول "بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب الذي أنتجته عوامل خاصة داخلية، وأثر عن حضارة غنية ومتنوعة، ثم التأكيد على أن المجتمعات التي تريد أن تبلغ درجة التقدم التي وصل إليها الغرب ليس أمامها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون أنفسهم، وليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية؛ لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها، وهي المعيقة لتطورها"¹²، وهو ما يدفع الفرد للتساؤل عن كينونته وما يمكن أن يميزه عن الآخر، فيعود إلى ماضيه، وهي أسئلة مشروعة في ظل ما تعانیه الذات العربية إزاء الآخر الغربي. "فتسيطر عليها رؤية منحازة غير دقيقة للأشياء، تتحكم فيها معايير رجعية في نظرتها للواقع، فكانت ترى الجمال والحضارة في كل ما هو فرنسي والقبح والتخلف في كل مظاهر الواقع الجزائري"¹³، فلا يمكن لها أن تصل إلى ما وصل إليه الغرب مادامت ترتبط بتاريخها وتنشبت بجذورها وعقيدتها، هذا التصور الذي يعمد الغرب إلى ترسيخه في عقول الشعوب المستعمرة وتكراره ما إن سنحت الفرصة حتى يصبح حقيقة قارة يؤمن بها، وهو ما يعزز انتماءه إلى الآخر .

إن المدرسة تمثل أحد الدعائم والركائز الجوهرية التي اعتمدها المعمر في تفكيك الهوية الوطنية وزعزعة ثوابتها، ودفع الذات الانسجام في محيط الآخر والتوصل من مسؤوليته تجاه وطنيته وقوميته وحفظ تراثه، فغياب الوعي ييسر عملية

سلخ الفرد الجزائري عن انتائه لتؤول إلى التشذرم والضياع، وهو ما يؤكد عليه أحد الفرنسيين الكبار وهو (أوجين فورميسترو) (Eugene Fourmestraux) كتب سنة 1880 يقول: "لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبيل الاحتلال"¹⁴، مستوى يسوده الجهل والتغريب ما جعل اللغة العربية تتقهقر بسبب تغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية التي سببها الاحتلال الفرنسي للبلاد، وساهمت المدرسة في انسلاخ الفرد الجزائري عن لغته، فأبعدت الفصحى عن الفرنسية وعن منافستها وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لذا كان لا بد من تعلمها، وأدرجت اللهجة الدارجة في التعاملات اليومية كبديل لاعتماد اللغة العربية الفصحى، كما أن دور المدرسة لم يركز على البنية التحتية للمجتمع الجزائري في استهداف لغته بل امتد إلى الجانب الخارجي لها من خلال تغيير الجانب الخارجي للذات الجزائرية من لباس وهيته، وتبني قيم مخالفة لرغبة في الاندماج في بوتقة الحضارة الأوروبية.

يفضح الكاتب من خلال فضاء المدرسة الزيف الذي تطبقه المنظومة التعليمية الكولونيالية في الجزائر وتحشي به عقول الأجيال القادمة بعد أن ساهمت المدرسة في انسلاخ الفرد الجزائري واعتزابه عن هويته ولغته وثقافته، ففي المدرسة يدرس الطفل الجزائري لغة غير لغته، ويطلع على تاريخ غير تاريخ بلده، ويكتسب ثقافة هجينة غير ثقافة الآباء والأجداد، وهو ما أورده سارتر في كتاب (الاستعمار الجديد) معبرا عن محام المستعمر المتمثلة في "استبدال لغتهم بلغة العدو وهدم ثقافتهم وتشويه تاريخهم"¹⁵، ومن ثم يدرك القارئ الاستلاب الثقافي القائم في المعمورة من خلال إعداد جيل يعزز الانتماء الغربي وترسخ خلاله قيم ومبادئ الآخر؛ لأن البرنامج التعليمي المسطر مناقض للواقع وللبيئة التي ينتمي إليها، بل هو مستوحى من العالم الغربي.

كانت الرواية تنتقد النظام الاستعماري بشدة، فقد اضطلع الروائي بمهمة محاورة الآخر (الجزائري) وتحديد موقفه النضالي، وخرج الكاتب من خلالها عن أطر الحديث عن فضاء القرية القبايلية إلى البعد القومي الوطني المناهض للاستعمار وسياسته الظالمة ضد الأهالي بشكل مباشر، وارتبط بفترة مهمة كانت أثناء الحرب العالمية الثانية وأثرها على الجزائريين كافة، وهي الأحداث نفسها التي عبر عنها العديد من الكتاب من خلال رصد الواقع السياسي والاجتماعي المأساوي للبلاد "لأن استحضار الشخصية الغريبة في الرواية العربية لم تكن أكثر من تجسيد حي لفكرة الهيمنة الاستعمارية على المنطقة العربية خلال المرحلة الجديدة من مراحل الاستعمار"¹⁶، لذا عمل المثقف الوطني الذي خرج من رحم الثقافة الغريبة على تأكيد شرعية دفاعه عن قضيته التحريرية ضد كل أشكال الهيمنة وجعل من اللغة الفرنسية وسيلة فعالة يسخرها قبل أن تتلعه وتجذبه إلى محيطها فينسلك عن أصله وانتائه ومجتمعه وعقيدته وعاداته وتقاليد.

ولعل الأمر لا يختلف كثيرا في روايته (الدروب الوعرة) (Les Chemins qui montent) حيث كانت ذهبية "تتردد على الكنيسة كغيرها من الكبار ولم يفتها شيء مما يقوله الخوري وكأن تخيل إليها أنه لا يوجد بين الحاضرين من يفهم كلامه مثلها"¹⁷ وهنا تجسيد للعلاقة التي ربطت ذهبية بالمسيحية وتعلمها، فلم تكن المدرسة وحدها من يسعى إلى تفتيت مقومات الهوية الجزائرية بل امتد الأمر إلى المساس بالعقيدة الإسلامية من خلال نشر الديانة المسيحية لذا نجد ذهبية عندما مرضت ذات يوم "لم تشعر بالخوف من الموت وإنما احتفظت معها بصورة مريم العذراء وظلت تقبلها طوال مرضها"¹⁸، وهي سياسة التنصير الغربي التي نشرها الفرنسي في أوساط الفلاحين كخطوة أولى من خطوات استمالة الذات والمساس بأهم مرتكزات الهوية الوطنية، وهي الدين الإسلامي، حتى الشبان في قرية آيت واضو قد تعلموا المسيحية، الأمر الذي جعلهم يرون أن ما يقومون به عمل جيد فقد "صاروا يتشبهون بالفرنسيين ويعتقدون أنهم في المنزل مثلهم أو أدنى بقليل، وهذا ما دعا الشبان من الجيل الجديد إلى تقليد الفرنسيين في كل شيء .. فإذا لاحظوا أنهم رغم كل ما يفعلون، لا يزال ينظر إليهم باحتقار من طرف الفرنسيين"¹⁹، غير أن المقطع السردى وضح لنا حجم الهوة الفاصلة بين الطرفين لتظهر لحظات تفكك الهوية في علاقة قائمة على تبعية المستعمر للمستعمر.

2-2- وعي الذات ورهان الانتماء:

يسعى الفرد لتأكيد ذاته من خلال الرجوع الى ما هو أصيل فيها؛ أي ما يشكل حصنا منيعا لا تتعداه أي عوامل خارجية، وهوية الفرد "تتجسد عبر انتاءات ومكونات تتعلق بالجنس والعمر والطبقة الاجتماعية والموروث الثقافي الذي يشكل ركيزة أساسية فيها مما يجعل الآخر المعتدي يهيم بالقضاء عليها"²⁰، لذا تراهن الذات على انتمائها

بالحفاظ على مقوماتها وميراثها التاريخي في مواجهتها للآخر، ينتج الخطاب الروائي لحظة من الوعي بالواقع، فالسياسة الفرنسية أوجدت استراتيجيات لإحداث قطيعة بين الذات وماضيها، والعمل على تفكيك البنية الثقافية التي تحفظ كينونة الذات واتمائها كون الآخر مدرك تماما لأهمية سلخ الذات عن مقوماتها حتى يسهل تبعية لها.

والروائي **محمد ديب في ثلاثيته** لعب دورا في التحول على مستوى المضامين والشخصيات، إذ أن عمله يراهن على الثورة التحريرية ويستشرف لمستقبل الجزائر المستقلة، فقد كان بارعا في اختبار شخصياته التي راهنت على انتمائها من خلال شخصية **عمر** التي كان لها نصيب من التعلم في المدرسة الفرنسية هي الأخرى شأنه شأن **فورلو**، لكن المدرسة التي صورها لنا الكاتب ونقل لنا تفاصيلها **عمر** كانت الفضاء الذي يبحث فيه **عمر** عن قطعة خبز مقابل حايته للأطفال لقول السارد: "لم يكن هذا النصيب الذي يتقاضاه إلا أجر هذه الحماية"²¹، يجعلنا السارد كقراء للثلاثية ندرك حجم المأساة التي جعلت الذات الجزائرية تبحث عن الطعام في كل مكان وإن كان فضاء للتعلم، يقول عمر إزاء وضعه البائس في أمل أن يحسنه: "أنا أذهب إلى المدرسة وأتعلم أشياء كثيرة.. إنني أريد أن أتعلم حتى إذا كبرت ربحت مالا وفيرا"²²، لأن التعليم من ضمن له الوظيفة، لكن حلم **عمر** لم يكتمل لأنه اضطر إلى ترك المدرسة، الأمر الذي أزعج والدته التي ترى أن تحصيل العمل يكون بالتحاقه بالمدرسة، لذا نجدها تخاطبه قائلة: "أما الآن فما عسى أن تصبح؟ حائكا؟ لسوف تعمل في الليل والنهار دون أن تحجي كسرة الخبز، هل تسمع؟ لن تحجي كسرة الخبز"²³.

لم يقتصر بحث الطفل عمر عن الطعام في المدرسة بل انتقل اهتمامه للبحث عن حقيقة انتمائه وهويته انطلاقا من الأسئلة التي يطرحها المعلم حسن في القسم بقوله: "من منكم يعلم معنى كلمة وطن؟"²⁴، السؤال الذي وجد إجابة لا بدليل لها وهي أن فرنسا هي الوطن الأم، إجابة لم تكن شافية بالنسبة للطفل الذي يعلم أن أمه عيني، وفرنسا توجد في الضفة الأخرى لا يمكن الوصول إليها دون تجاوز البحر فكيف لأمه أن تكون فرنسا، "ليست ثمة أشياء مشتركة بين أمه وفرنسا لقد اكتشف عمر الكذبة"²⁵ وأن ما يتعلمه زيف لا يوجد فيه ما يتصل بالواقع، إنه مدرك تماما أنه لا يمكن تصديق انتائه لفرنسا. **عمر** يفرق بين معنى الأم وماهية الوطن واختلافها عن فرنسا، هو مدرك أن فرنسا ليست الأم الوطن ومن هنا كانت إيديولوجيا الخطاب الروائي تعكس إيديولوجية الذات الجزائرية فأزاحت الحجب أمام الطفل عمر وتكشفت الحقيقة، وهي نفس الفكرة التي وضها **كوهن Cohen** الذي قال: "إن بين الجزائر وفرنسا ثمة ألف كيلومترات من البحار، وبين الحي الأوروبي والحي العربي فهناك مسافة كونية من الاستعمار تقاس ببعد النجوم"²⁶، وأن الجزائر تختلف تاريخا وأيديولوجيا وعقائديا وجغرافيا وثقافيا عن فرنسا.

تأكيدا لأصوله وتمسكه بأرضه وتشبثه بتاريخها وعاداتها ولغتها أكد الكاتب نمط الاختلاف والتباين بين المستعمر والمستعمر رغم كل التحديات التي واجهته، وهي التحديات التي صادفت الكاتب نفسه في ظل الوضع الاستعماري الذي لم تسلم منه لغته المصادرة، وكان الكاتب يراهن بدوره على انتاء الذات الجماعية من خلال صناعة وعي جماعي وشحنه بنزعة أيديولوجية مقاومة، "فإن تحارب ضد التشويهات التي تنزل بهويتك بهذه الطريقة هو أن تعود بمرحلة سابقة على الأمبريالية بحثا عن ثقافة أصلانية نقية صافية"²⁷، وهنا تبرز قدرة الكاتب على شحن نضه بمخزون تاريخه وثقافته وعاداته وتراثه، لذا كان تمجيد التراث الجزائري هو إثبات لذات الجماعة وتأكيد تاريخها

3. اغتراب الذات ورهان الانتماء:

لم تكن المدرسة ذات أهداف تعليمية تعلم الطلاب فنون الحساب ودروس التاريخ والجغرافيا بقدر ما كانت تهدف لإبعادهم وانسلاخهم عن تاريخهم ولغتهم ودينهم واستمالتهم لتعاليم الديانة المسيحية وتنصير المجتمع من قبل الآباء البيض من خلال إغرائهم، إذ يرسم لنا الكاتب **مولود فرعون** صورة الأب المسيحي السيد أمير **lambert** بوستاني يدير مركز لرعاية التلاميذ المعوزين الذين هم بدون مأوى وذلك لمتابعة وإكمال دراستهم الثانوية، وهو نفس الشخص الذي وفر غرفة لفورلو كان يتشاركها هو وصديقه، فاهتما كثيرا بالدراسة وبذلا كل جهدهما عازمين على تحقيق هدفهما وكانا يذهبان بانتظام "يقرآن مقاطع من الانجيل في قاعات العبادة بعد الانتهاء من الدراسة، وهو ما قاله السارد في رواية مولود فرعون عن منراد وصديقه: "كانا يذهبان بانتظام يقرآن مقاطع من الإنجيل مثل جميع التلاميذ وينشدان التراتيل بطريقة جيدة، ويسمعان باحترام تعاليق القائد... كانا يجدان متعة في إنشاد التراتيل حتى وحدهما، التراتيل التي

حفظها والتي تمجد المسيح المصلوب²⁸، لقد كانت ادعاءات الحضارة مجرد كذبة، وبالتالي لم تكن المدرسة للتعليم بقدر ما كانت تسعى لاستقطاب الطبقة المثقفة واقتلاعها من أصولها وتراثها وهويتها وصبغها بهوية معاكسة تماما.

كما يطرح مولود فرعون في رواية الدروب الوعة قضية اغتراب الذات وتمزقها نتيجة لقاء أم جزائرية وأب فرنسي كان ثمرته ذات هجينة فاقدة لهويتها تبحث عن انتمائها، بطلها الشاب عامر الذي بات منفيلا لا يصف نفسه كمواطن جزائري، فهو ضحية زواج مختلط جعله يشعر بالذنب لذلك يخاطب عامر نفسه قائلا: "كنت أنال حظي من الاهانة على يد السلطات وكيف كنت أقاسمهم المعيشة النعيسة في الغرفة الحقيمة ولقمة العيش المرة في باريس وفي غيرها من المدن"²⁹، فوجوده في فضاء الآخر لم يكفل له حق المواطنة الفرنسية ولا حق الحياة الكريمة، إنه منبوذ غير مرحب به، لقد كان الآخر الفرنسي يلقبه بـ (بيكو) ويطلبون منه الرحيل لذلك يقول: "سمعت الناس في فرنسا يقولون لي عد الى بلادك يا بيكو"³⁰، ليدرك زيف الوعود التي قدمتها فرنسا وأن الآخر لا يمكن أن يكون الصديق، لذا كشف الكاتب عما يخفيه الوجه الممجي لفرنسا من خلال لقاء الأنا بالآخر، وهو ما أوجع مشاعر الانتماء إلى بلد أمه التي وجد فيها الحزن والمأوى، فتلك التساؤلات التي لم يجد لها إجابة أهو فرنسي أم جزائري؟ جعلته يحسم قراره بأنه جزائري بعد أن صار يشعر بالغربة في فرنسا (فضاء الآخر) ويحن إلى العودة إلى وطنه المفقود لذلك يقول: "لقد صرت لا أطيق صبرا على بلادي وشعرت برغبة جامحة لزيارتها والتمتع بخيراتها والمشى فوق ترابها واستنشاق هوائها الساخن والتعرض لأشعة شمسها المحرقة والسير في دروبها المغيرة"³¹، أحس عامر بالاغتراب في فرنسا بقيمة بلده وحنينه إليه، لحظة الإدراك والوعي والتصالح مع الذات، إنها تلك الأرض التي تعترف بوجود أبنائها وتحتويهم وتمنحهم الأمان، لقد أدرك عامر أن الآخر لن يعترف به بل يضره له العداء ويهمشه ويستبعده، كما تجلت هنا فكرة الثنائية الضدية بين فضائين مختلفين (الجزائر وفرنسا) وهي ثمة ملازمة للخطاب ما بعد الكولونيالي، كما تستحوذ العديد من الثنائيات الضدية الخطاب الروائي.

- خاتمة:

بناء على ما تقدمنا به حاولت أن ألمس مشكلة أساسية أثرت بشكل واضح في الذات الجزائرية أثناء المرحلة الاستعمارية ألا وهي إشكالية الهوية والانتماء لتتوصل إلى عدة نتائج نذكر أهمها:

- تعد روايات الكتاب الفرانكفونيين أثناء الفترة الاستعمارية من أهم الروايات التي حاكت الواقع الجزائري وعالجت العديد من القضايا المرتبطة بالأنا والآخر كالهوية والانتماء والاعتراب والاستلاب والهجنة فضلا على أنها عكست جوانبا مظلمة من علاقة الأنا بالآخر وإبراز موقفهم المناهض للآخر، وكان للكاتب دور في تمرير هذه القضايا للجمهور القراء.

- عكست المدونات المختارة حالة التشظي التي تعانيها الذات بفعل الآخر والذي قصد الشق الثقافي على غرار الجانب العسكري والاقتصادي والجغرافي في محاولة إخضاع الشعوب واستعبادها.

- يمثل الآخر الفرنسي في الرواية الجزائرية بصورة العدو نتيجة ممارساته القمعية من تقتيل وتهجير واستلاب وهكذا لم ينفك يعلن وصايته على الذات وشرعنة أحقيته في الاستيطان.

- ركز الكتاب على فضاء المدرسة كونها المكان الذي يتم فيه تهجين الذات وإدماجها في الآخر فتعاني الذات اغترابا وتمزقا وقلقا وجوديا.

- إعادة الاعتبار للذات من خلال النص السردي إيمانا من الكاتب بأن الصراع الذي يخوضه صراع أنطولوجي ضد الظلم والتخلف ودعوة للتحرر.

- خلق الآخر أزمة هوية كما عمل على إذلال وإخضاع واضطهاد الذات المستعمرة.

- أظهر الكاتب على مستوى السرد رموز الثقافة والسيادة الوطنية ومناهضة الآخر رفض أفكاره.

- الهوية كإشكالية ثقافية كانت ولا تزال سؤالا يتم طرحه في المدونات السردية المتعلقة بالكتابات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية.

● الصوت المركزي للخطاب الروائي في الثلاثية هو صوت المثقف الذي سعى لإزاحة الظلم والعنف الاستعماري وكل مظاهره التي سعت إلى تجهيل الشعب لا تحضيره.
الهوامش:

- 1 أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، ب ط، 2007م، ص 12.
 - 2 اليكس ميكشيللي، الهوية، تر: علي وطفة، تنفيذ دار الوسم للخدمات الطباعية، دمشق، ط 1، 1993م، ص 7.
 - 3 ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، دولة الكويت، ب ط، 2013، ص 15.
 - 4 دلال البزري، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط 1، 1999م، ص 108
 - 5 Dejeux jean: Situation de la littérature magrebine O.P.U. Alger 1982p21
نقلا عن أمين الزاوي، صورة المثقف في الرواية المغاربية المفهوم والممارسة، دار النشر راجعي، الجزائر، ب ط، 2009، ص 91.
 - 6 مولود فرعون، ابن الفقير، تر: عبد الرزاق عبيد، دار ثلاثيقيت للنشر الجزائر، 2013، ص 69.
 - 7 محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، ب ط، 1970، ص 25.
 - 8 عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1967/1925، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، ص 109
 - 9 Mouloud Feraun, Le fils du Pauvre : Editions Talantikit, Bejaïa, 2015, P73
 - 10 Mouloud Feraun, Le fils du Pauvre, 15, P73.
 - 11 مولود فرعون، ابن الفقير، (مصدر سابق) ص 70.
 - 12 عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 1997م، ص 33.
 - 13 بشير بويجيرة، الشخصية في الرواية الجزائرية 1970-1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، 2006م، ص 188.
 - 14 مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 414.
 - 15 جان بول سارتر، الاستعمار الجديد، تر: عايدة وسهيل إدريس، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 2، 1966م، ص 141.
 - 16 صلاح صالح، سرد الآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، ط 1، 2003م، ص 133.
 - 17 مولود فرعون، الدروب الوعرة، تر: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 30.
 - 18 المصدر نفسه، ص 31.
 - 19 المصدر نفسه، ص 29.
 - 20 ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر- نماذج روائية عربية، (مرجع سابق)، ص 15.
 - 21 محمد ديب، الدار الكبيرة، (مصدر سابق)، ص 14-15
 - 22 المصدر نفسه، ص 70
 - 23 محمد ديب النول، تر: سامي الدروبي، ب ط، القاهرة، دار الهلال، 1970م، ص 32.
 - 24 محمد ديب الدار الكبيرة (مصدر سابق)، ص 22.
 - 25 المصدر نفسه، ص 23.
 - 26 Mohammedi – Tabti Bouba »La société Algérienne avant L'indépendance dans La Littérature p32
نقلا عن: جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيوثقافية، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، جامعة وهران، 2010م/ 2011م، ص 169.
 - 27 ادوارد سعيد، الثقافة والأمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، لبنان، ط 4، 2014م، ص 330.
 - 28 مولود فرعون، ابن الفقير، (مصدر سابق)، ص 164-165.
 - 29 مولود فرعون الدروب الوعرة، (مصدر سابق)، ص 155.
 - 30 المصدر نفسه، ص 161.
 - 31 المصدر نفسه، ص 161.
- المصادر والمراجع:
- 1- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، ب ط، 2007م.
 - 2- ادوارد سعيد، الثقافة والأمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، لبنان، ط 4، 2014م
 - 3- أمين الزاوي، صورة المثقف في الرواية المغاربية المفهوم والممارسة، دار النشر راجعي، الجزائر، ب ط، 2009.
 - 4- بشير بويجيرة، الشخصية في الرواية الجزائرية 1970-1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، 2006م.
 - 5- جان بول سارتر، الاستعمار الجديد، تر: عايدة وسهيل إدريس، منشورات دار الآداب، بيروت، ط 2، 1966م.

إشكالية الهوية ورهان الانتماء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قراءة في نماذج لمحمد ديب ومولود فرعون.

- 6- جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيوثقافية، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، جامعة وهران، 2010م / 2011م.
 - 7- دلال البزري، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 1999م.
 - 8- صلاح صالح، سرد الآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، ط1، 2003م.
 - 9- عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1967/1925، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، ب ت.
 - 10- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997.
 - 11- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، علم المعرفة، دولة الكويت، ب ط، 2013.
 - 12- محمد ديب النول، تر: سامي الدروبي، ب ط، القاهرة، دار الهلال، 1970م.
 - 13- محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، ب ط، 1970.
 - 14- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.
 - 15- مولود فرعون، الدروب الوعة، تر: حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
 - 16- مولود فرعون، ابن الفقير، تر: عبد الرزاق عبيد، دار تلاتنيقيت للنشر الجزائر، 2013.
 - 17- اليكس ميكشيللي، الهوية، تر: علي وطفة، تنفيذ دار الوسم للخدمات الطباعة، دمشق، ط1، 1993م.
- Mouloud Feraun, Le fils du Pauvre : Editions Talantikite, Bejaia, 2015.